

أنشطة إيران الدينية أخطر من النووية !

في 23 أكتوبر، أكد الرئيس الإيراني حسن روحاني، في كلمة ألقاها عبر التلفزيون الرسمي الإيراني أن «مكانة إيران في المنطقة – الشرق الأوسط – أصبحت أكبر من أي وقت مضى»، وتابع متسائلاً «هل من الممكن اتخاذ أي قرار حاسم في كل من العراق وسوريا ولبنان وشمال أفريقيا والخليج (.....) دون أخذ الموقف الإيراني في الاعتبار؟»

كلام روحاني هذا جاء في ردّ على تصريحات ريكس تيلرسون، وزير الخارجية الأمريكية، عشية زيارته للرياض، حيث كان قد اعتبر أن عراقاً قوياً «سيعالج من بعض النواحي بعض التأثيرات غير المنتجة لإيران». الولايات المتحدة هي الأخرى مسؤولة عن قدر لا بأس به من عدم الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط. لكن لتيلرسون مبررات تدفعه لانتقاد سياسة طهران الخارجية.

الإمبراطورية الفارسية

للفرس نزعة مؤسفة للتوسع غرب أراضيهم وهي تعود إلى حقبة الإمبراطورية الأخاميدية من القرن السادس إلى القرن الرابع قبل التاريخ الميلادي. في ذلك الوقت كانوا قد استحوذوا على الأراضي الممتدة من «بلاد الرافدين» وصولاً إلى ليبيا. إمبراطورية أسقطها الإسكندر المقدوني. لكنهم أعادوا تشييدها في العهد الساساني في بداية القرن الثالث للميلاد. تمدد الفرس من جديد حتى وصلوا إلى مصر. ما برح بهم الأمر إلا أن تدهقروا فترجعوا إلى بلاد الرافدين والأراضي العربية في جنوب الخليج.

جاء الفتح الإسلامي في القرن السابع ليهزم الفرس لكنهم ما فتؤوا يعيدوا بناء إمبراطوريتهم. إثر اعتناقهم للإسلام اختاروا إتباع المذهب الشيعي. لم يكتف الفرس بفرض بلادهم كمرکز أساسي لهذا المذهب بل طوعوه أداة للتمدد السياسي. هكذا وبهذه الذريعة نمت الإمبراطورية البويهية «القرن العاشر والحادي عشر» ثم تلتها الإمبراطورية الصفوية «القرن السادس عشر إلى الثامن عشر». هذه الطموحات الإمبريالية لم تتضاءل مع الزمن لا بل تجاوزت الطبقة الحاكمة لتعم الفرس كافة حيث عرفوا بـ «إيرانيين» بكل نحلهم.

الإمام موسى الصدر وصعود «حزب الله»

إذا التفتنا إلى الماضي القريب، نجد أن اللبنانيين هم خير دليل على هذه الظاهرة، ففي الخمسينيات، حل عليهم الإمام موسى الصدر. وهو من أصول لبنانية، ولد الصدر في إيران، حيث تلقى قسطاً من دراسته، ثم انتقل إلى النجف في العراق. هذا الشخص العابر للدول كان قد أرسله إلى بلاد الأرز، شاه إيران، رضا بهلوي شخصياً، وليس من قبل طبقة رجال الدين، كما يظن البعض. كانت مهمة الصدر تقتضي بأن ينظم أمور السكان المحليين من الشيعة.

كان رجل ذو شخصية جذابة ويتمتع بثقافة عالية وعلى قدر عال من الدهاء. هكذا وبكل حذاقة عبّد الطريق لـ «حزب الله». الكثير يعتقد أنه عمل على ذلك دون سابق تصور وتصميم، لكننا لسنا على هذا الرأي طالما الأسلوب في العمل يطابق ذلك الذي يعتمده النظام في طهران. في بادئ الأمر، أخذ يدافع عن قضية الشيعة الأكثر فقراً، خاصة أولئك في الجنوب على الحدود مع إسرائيل. وفي عام 1973 أنشأ لهذه الغاية «حركة المحرومين» معتمداً على الإعانة الاجتماعية للمحتاجين لجذب المناصرين. في عام 1975، أنشأ ميليشيا «أمل» حيث انشق عنها قسماً ليكون نواة «حزب الله» وكانت ولادته الرسمية عام 1985 بمبادرة إيرانية.

نجد تلك الإرادة الإيرانية لتوسيع رقعة نفوذها معتمدة على العنصر الشيعي في الشرق الأوسط وحتى في أفريقيا. نشهد هذه الظاهرة في شرق المملكة العربية السعودية وفي البحرين وفي أفغانستان وفي باكستان وفي مصر وباقي أفريقيا الشمالية. على نفس المنوال تلجأ إيران إلى الخلطة ذاتها: العقيدة الشيعية والعمل الإحساني والثورة الإسلامية.

بيد أن الشيعة غالباً ما يكونوا أقليات، ولكي تؤمن إيران سيطرتها على بلد ما، تعتمد إلى تجنيد عناصر سنّية، في لبنان مثلاً، حفزت إنشاء «سرايا المقاومة» التي تتألف من عناصر سنّية للقتال إلى جانب «حزب الله». وفي أفغانستان شاهدها شخصياً تذهب إلى أبعد من ذلك.

نسبة الشيعة في أفغانستان تصل إلى 20% معظمهم من الهزارة. بعامل العصبية استطاعت إيران كسب موالاتهم. في عام 2008 كنت قد أجريت مقابلة مع أحمد شاه أحمد زاي. لم يكن غريباً علي إذ كنت قد صادفته خلال تغطيتي لحرب المقاومة ضد الاجتياح السوفيتي لأفغانستان. أحمد زاي سني من الباشتون، تقلد عدة مناصب وزارية إلى أن تولى رئاسة الوزراء من 1995 إلى 1996.

في بداية سنوات الـ 2000، جندته الإيرانيون لتكوين شبكة ملالي سنة تكن الولاء لإيران، علمنا ذلك من مصادر أخرى وقتذاك. كان كل من انضم للشبكة يحصل على سيارة وهاتف «ثريا» وراتب شهري. كانت تقام للمنضوين دورات تدريبية في إيران. من خلال اطلعنا على وثائقهم الدعائية «البروباغندا» التي كانت توزعها هذه الشبكة، وجدنا أن أيديولوجيتها تدور على الثورة الإسلامية بنسختها الإيرانية، وعلى شيطنة الولايات المتحدة الأمريكية. وبحسب مصدر قال لي، فإن هذه الشبكة ما زالت ناشطة حتى اليوم.

كما نعلم إن الشيعة ينقسمون إلى عدة مذاهب و فرق. الاثنا عشرية هي الأكثر شيوعاً، هم من يتبعون سلالة الأئمة وصولاً إلى الإمام الثاني عشر، آيات الله الإيرانيون هم من هذا المذهب. في الماضي كانوا يقفون على مسافة بعيدة من الفرق الشيعية الثانوية ولكن منذ الثورة الخمينية في 1979 سعى الإيرانيون لاختراقها وتجنيدها. المثل الأبرز نجده في الحوثيين في اليمن، حيث اتباع الفرقة الزيدية والتي استمالتهم إيران لمحاربة القوى السنّية والتحالف العربي. الدعم العسكري الذي تقدمه لهم إيران لا يخفى على احد. المخابرات الإيرانية تذهب إلى أبعد من ذلك. يتقربون من السنّة في بلاد كانت فيما مضى محكومة من الشيعة بهدف تحويلهم إلى المذهب الشيعي.

أسست في القرن العاشر ومركزها مصر، الدولة الفاطمية «أو الخلافة الفاطمية»، تمددت من المغرب العربي حتى الشام. فيما كانت الطبقة الحاكمة تنتسب إلى الفرقة الشيعية السبعية، وبقيت الشعوب على المذهب السني. عند انهيار الفاطميين في القرن الثاني عشر لم تبق على هذه العقيدة سوى عائلات قليلة في الشرق الأوسط.

في الثمانينيات وفيما كنت أجري تحقيقات صحافية في الأوساط المناضلة للإسلام الراديكالي في باريس، وقعت على توانسة يصنفون أنفسهم شيعة ليس كمتحولين إلى هذا المذهب إنما كشيعية أصليين. في الواقع كانوا يديرون مكتبة ممولة من طهران. أقنعتهم هذه الأخيرة بأن أجدادهم شيعة.

هذا النوع من الدعوة أخذ في التوسع. السلطات الرسمية المصرية تقر بظهور حديث للشيعة، نحو 1 % من مسلمي البلد لكنها حائرة لا تدري منبعهم. المغاربة وقعوا على نفس الظاهرة. في الربيع الماضي، منعت الحكومة جمعية شيعية تدعى «الخط الرسالي» حديثاً الناشئة في طنجة.

الإيرانيون وجدوا مدخلاً من ذهب لنشر دعايتهم في هذه البقعة من الأرض: إدريس الأول، مؤسس المملكة المغربية الشريفة هو حفيد الإمام علي بن أبي طالب -أول إمام لدى الشيعة- ابن عم وصهر النبي محمد. إدريس الأول إذ نجا من معركة «الفخ» في سنة 786 في شبه الجزيرة العربية، هرب إلى المغرب حيث رحبت به القبائل وقبيلت به ملكاً عليها. في تلك الحقبة، العقيدة والممارسات الشيعية لم تكن لتختلف سوى بقليل عن تلك المتبعة لدى أهل السنة. مثلاً في المغرب، الجميع على المذهب السني. كان لا بد من تتدخل الإيرانيين لنشر الشك.

اليوم، هذه الظاهرة تطل أفريقيا السوداء. كنت قد التقيت محمد علي حيدر في السنغال حيث بنى مؤسسة شيعية. يدعي أنه من أصول مغاربية وينحدر من عائلة أول إمام. حسب قوله «السنغاليون شيعة لكنهم لا يعلمون». يحلم بأن يعيدهم إلى دين «أجداده». في نيجيريا، وقعت صدامات عنيفة بين السلطات ومتحولين جدد إلى المذهب الشيعي. يخشى أن تتفاقم هذه الظاهرة لتعم سائر البلدان الأخرى مثل النيجر حيث نجد في العاصمة نيامي أحياء مأهولة من أناس تحولوا إلى المذهب الشيعي بفضل المال الإيراني.

الهلال الشيعي يبعث الخوف. إيران تستند إلى بلدان حليفة مثل العراق أو سوريا أو تعتمد إلى اختراقات على المستوى الحكومي كما هو الحال في لبنان. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: أليس التلاعب سنة تلو الأخرى بالشعوب، سنة كانوا أم شيعة، الخطر الأكبر؟ ذلك يؤدي بالنهاية إلى الطائفية والعنف. لا شك في أن مسألة إيران حول أنشطتها الدينية أهم من النووي لأن هذه القبلة أخطر بكثير!

آلان شوفاليرياس

صحافي وكاتب فرنسي - مستشار مركز البحوث حول الإرهاب - باريس
<http://www.recherches-sur-le-terrorisme.com>

هذا المقال نشر في صحيفة الوطن البحرينية

<http://alwatannews.net/article/749672/Opinion/!انشطة-يران-الدينية-أخطر-من-النووية>
<http://alwatannews.net/article/750033/Opinion/2-!انشطة-يران-الدينية-أخطر-من-النووية>